

المُسْتَدْرَك على نقد الصفوة السودانية لترمقها: من نقد المنهج والمقاصد إلى نقد التفاصيل

دبلوماسي وباحث في التاريخ و التراث
السوداني

د. خالد محمد فرح

مستخلص:

يهدف هذا المقال الى تقديم استعراض نقدي لكتاب: إغواء الصفوة: قراءات نقدية في كتاب سبنسر ترمقها « الإسلام في السودان »، الذي صدر في عام 2011م، عن دار بالخرطوم. وهذا الكتاب هو تلخيص واستعراض لوقائع ندوة انعقدت قبل ذلك التاريخ بذات العنوان بمركز التنوير المعرفي بالخرطوم، وقدمت خلالها ست أوراق عمل أعدها مجموعة من الباحثين والاكاديميين من داخل السودان وخارجه، واستهدفت بالاستعراض والتحليل والنقد من زوايا نظر مختلفة، مادة كتاب القس والمستشرق البريطاني سبنسر ترمقها 1904 - 1987م، بعنوان: « الإسلام في السودان » الذي صدر في عام 1949م، عن دار جامعة أوكسفورد للنشر. يستعرض المقال التلخيص الموجز للأوراق الست التي احتوى عليها الكتاب الذي أعده البروفيسور عبد الله علي ابراهيم، محرر ذات الكتاب وكاتب توطئته، ويشدد بصفة خاصة على ملاحظة مفادها أن جل النقد الموجه لاسبنسرترمقها وكتابه « الاسلام في السودان » في الكتاب المعني، قد جاء من قبيل ذلك النمط من النقد الثقافي والمقاصدي والمفاهيم العام، أي المعني بأمهات القضايا، دون التفاصيل الدقيقة ذات الصلة بالمعلومات التاريخية ذاتها، والتي لا يغدو بدونها أي مؤلف في التاريخ من حيث هو، مصنفًا جديرًا بالثقة، أو يُعتد به في بابه كمرجع تاريخي. ومن ثم يعتمد المقال إلى بيان وتفصيل جملة الأخطاء التاريخية المحضة التي وقع فيها سبنسر ترمقها في كتابه المذكور.

كلمات مفتاحية: سبنسر ترمقها، كتاب الاسلام في السودان، كتاب إغواء الصفوة في نقد منهجية ترمقها، النقد الثقافي والمفاهيمي، نقد المقولات والمعلومات.

Abstract:

This article proposes to present a critical review of the book entitled: *Seducing the Elite: Critical Readings in Spencer Trimingham's book: Islam in Sudan*. The said book was published in 2011 at Khartoum by the Cognitive Enlightenment Center and it comprises a summary and a review of the proceedings of a seminar held in that center before that year under the same theme, and during which six working papers were prepared and presented by a number of researchers and academics, Sudanese and non Sudanese as well, that aimed at reviewing, analysing and criticising from different perspectives, the content of the British clergyman and orientalist, Spencer Trimingham's

Key terms: Islam in Sudan by Trimingham. *Seducing the Elite* book or Ighwa'a assafwa, criticising the methodology, cultural and conceptual criticism, factual criticism, criticising statements and information rather than attitudes and intentions etc

صدر عن مركز التنوير المعرفي بالخرطوم في عام 2011م، كتابٌ بعنوان: «إغواء الصفة: قراءات نقدية في كتاب سبنسر تريمينقهام: الإسلام في السودان». وقد نُشرت في ذلك الكتاب ستُّ أوراق علمية، كان قد قدمها قبل ذلك في ندوة نظمها المركز المذكور لذات الغرض، ستة من الأكاديميين والباحثين بالسودان هم: الدكتور حسن عوض الكريم علي، أستاذ التاريخ بجامعة شندي، وكانت ورقته بعنوان: الإسلام في السودان: ترجمة وعرض، والدكتور أحمد الياس حسين، أستاذ التاريخ بكلية التربية جامعة الخرطوم، وجامعة الفاتح بليبيا، والجامعة الإسلامية بماليزيا سابقاً، وجاءت ورقته بعنوان: الفترة السابقة للحكم التركي في كتاب (الإسلام في السودان)، والدكتور علي صالح كزار، الأمين العام لدار الوثائق القومية سابقاً، وأستاذ التاريخ بجامعة النيلين حالياً، وكانت ورقته بعنوان: فترات الحكم التركي المصري والمهدية والحكم الثنائي في كتاب (الإسلام في السودان)، والدكتور فائز عمر محمد جامع، الأستاذ بمركز دراسات السلام والتنمية بجامعة جوبا سابقاً، ومنسق الشؤون العلمية بمركز التنوير المعرفي، وقد جاءت ورقته بعنوان: الصورة والنص: قراءة أولية في كتاب (الإسلام في السودان)، والدكتور قيصر موسى الزين، أستاذ التاريخ بمعهد الدراسات الأفريقية والآسيوية بجامعة الخرطوم، وقد كانت ورقته بعنوان: المنهجية والإيديولوجيا: قراءة نقدية في كتاب (الإسلام في السودان)، والدكتور عبد الله سالم بكو - جزائري الجنسية، أستاذ فلسفة، ومترجم فوري، وكاتب صحفي، وقد جاءت ورقته بعنوان: (الإسلام في السودان) بين الخطابين الكولونيالي والديني. صدر هذا الكتاب الذي نحن بصدد، بتحرير الأستاذ منتصر أحمد النور، الباحث بمركز التنوير المعرفي، وقد صدره بمقدمة

استهلالية ومنهجية ضافية، البروفيسور عبد الله علي إبراهيم، المثقف والناشط والباحث والمؤلف ذو الإسهامات المعروفة، وأستاذ التاريخ الأفريقي بجامعة ميسوري بالولايات المتحدة الأمريكية. أما مؤلف كتاب الإسلام في السودان، فهو القسّ جون اسبنسر ترمنقهام John Spencer Trimingham (1904 - 1987م)، وهو مُبشّر مسيحي بريطاني الجنسية، وباحث وأكاديمي، كان مُهتماً بصفة خاصة، بتاريخ وحاضر الإسلام في قارة أفريقيا على وجه العموم. درس ترمنقهام العلوم الاجتماعية بجامعة برمنقهام بإنجلترا، كما درس اللغتين العربية والفارسية بجامعة أوكسفورد. انخرط في سلك الخدمة الكنسية بكنيسة إنجلترا في شبابه، وعمل بالجمعية التبشيرية بمصر والسودان وغرب أفريقيا طوال الفترة ما بين عامي 1937 و1953م، وشغل بالتحديد وظيفة السكرتير العام للجمعيات التبشيرية في كل شمال السودان منذ عام 1937م وحتى عام 1949م. وأما نشاطه الأكاديمي، فقد تمثّل في عمله أستاذاً للغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة غلاسكو بأسكتلندا 1953 - 1964م، وأستاذاً زائراً للتاريخ بالجامعة الأمريكية ببيروت 1964 - 1970م، ثم انتقل بعد ذلك في أخريات حياته العملية، لكي يعمل بمدرسة الشرق الأوسط لللاهوت ببيروت. (انظر ترجمة سبنسر ترمنقهام بموسوعة ويكيديا على الشبكة العنكبوتية). وأما كتابه «الإسلام في السودان» الذي نحن بصده في هذه الكلمة، فقد ألّفه هذا الكاتب خلال سنوات الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945م)، كما صرّح هو نفسه بذلك في مقدمة الكتاب، وفرغ من تأليفه في شهر يونيو 1946م، وصدر الكتاب في عام 1949م، عن دار نشر جامعة أوكسفورد. هذا، وقد قدّم البروفيسور عبد الله علي إبراهيم في التوطئة الجزلة التي كتبها لكتاب «إغواء الصفة» في نقد كتاب: الإسلام في السودان لاسبنسر ترمنقهام، تلخيصاً موجزاً لمضامين الأوراق الست التي قدّمت في الندوة ونُشرت في الكتاب. وبحسبنا أن نجتزئ ما يلي مما ذكره البروفيسور عبد الله في هذا الخصوص بتصرف واختصار:

• «عَرَضَ حسن عوض الكريم الكتاب عرضاً مناسباً، يفيد منه القارئ الذي لم يحظ بقراءته من قبل، ويتهيأ به لقراءة ما يلي من العرض من المقالات التي قيّمته». بيد أن عبد الله علي إبراهيم قد توقف عند نقطتين أثّارهما الدكتور عوض الكريم في ورقته هما: أنَّ مسيحية النوبة قد كانت - في رأي ترمنقهام - مسيحية سطحية، ودينياً رسمياً اعتنقه الخاصة والحكّام، واعتزله عامة السكان من النوبة، مما سهّل على الإسلام أمر محوها لاحقاً، وإحلال نفسه محلها.

وأما فكرة ترمنقهام الأخرى التي أبرزها حسن عوض الكريم، فهي أن العرب الذين تزاجوا مع النوبة، تسللوا إلى سدّة الحكم من بين النوبة، لعادة القوم في توريث ابن الأخت، وهي عادة ناشئة مما يُسمّى ب (النظام الأمومي). • وضع مُقدّم الكتاب عرضي الأستاذين الدكتور أحمد الياس حسين، وعلي صالح كرار، وهما على التوالي: مراجعة لبعض المعلومات التاريخية الواردة في الكتاب عن الفترة السابقة للمهدية، وتقييم المعلومات التاريخية في الكتاب عن فترات الحكم التركي

المصري، والمهدية، والحكم الثنائي، في محور التاريخ، لكي يخلص إلى أنهما قد كانا حَسَنِي الرأي في الكتاب عموماً. فالياس ميّزه بحُسن التوثيق، وكرار رأى أن ترمقها كتب بطريقة علمية، ومنهج موضوعي هادف إلى بلوغ الحقيقة، خلافاً للمؤرخين الأوروبيين الذين كتبوا عن الإسلام وأفريقيا بروح استعمارية وصليبية. فسفره قيّم ومحايد وموضوعي، ومتجرد، على الرغم من صدوره من أوروبي مسيحي، بل مبشر كنسي ملتزم. • وقد عاب أحمد الياس على ترمقها، كما لاحظ عبد الله علي إبراهيم، أنه تعامل مع مخطوطة الدوايب التجانية بكرد فان للأنساب، والتي ترجع أصولها للعام 1738م، بشيء من الابتسار والتطفيف نوعاً ما، كما أخذ عليه كذلك، تسليمه المطلق بالرأي الشائع عن اتفاقية البقط بين حكام المسلمين في مصر وملوك النوبة (662 هـ). والصواب هو 652م / 31هـ)، وأنها كانت تتعلق بمملكة المُقرّة وعاصمتها دنقلة - كما هو الشائع والمشهور - بينما يجادل الدكتور أحمد الياس بأن جيش عبد الله بن سعد بن أبي سرح لم يبلغ دُنقلة أصلاً في ذك التاريخ، وأن ذلك الاتفاق إنما كان مع أهل مملكة مريس، أي أولئك النوبة الذين هم في أسفل بلاد النوبة الكبرى مما يلي مصر نفسها، وليسو سكان مملكة المقرّة التي عاصمتها دنقلة. • أما الدكتور كرار، فقد لاحظ عبد الله علي إبراهيم أنه قد أخذ على ترمقها عدم التزامه بالسلسل الزمني للأحداث التي ضمنها فصول كتابه، وذلك بدليل أنه لم يكد يفرغ من استعراض أحداث تاريخ السودان تحت الحكم الثنائي 1898 - 1956م، حتى عاد مرةً أخرى لكي يتحدث عن انتشار الإسلام داخل البلاد، بما يشوُّش على القارئ. كما أخذ عليه حملته على التركي 1821 - 1885م، ربما من منطلقات سياسية وعرقية ودينية كما قال، فضلاً عن تبخيس ترمقها دور المصريين في فترة الحكم الثنائي، مما عدّه الدكتور علي صالح تحاملاً من قبل المؤلف، فسره مُعدّ الورقة على خلفية الملبّسات والظروف التاريخية التي صدر فيها الكتاب في أربعينيات القرن العشرين، التي شهدت بروز وتنامي الدعوة لوحدة وادي النيل التي قابلها البريطانيون بغير قليل من الضيق والتوجُّس. • وأما ورقة الدكتور جامع، فقد نظرت في الصورة التي يحملها الكاتب عن أهل السودان، بالنظر إلى أنه بريطاني يكتب عن أهل مُستعمرة خضعت لحكم بلاده بريطانيا، علاوةً على أنه لم يكن مسيحياً من سائرهم، بل قسيساً ملتزماً بنشر دينه. كما أنه ألف في باب الإسلام في أفريقيا، مؤلفاتٍ معروفةً، وتأذن هذه الصفة الأخيرة بدراسة مقارنة مع ما كتبه هذا المؤلف عن الإسلام في السودان. وخلص جامع إلى تأثر ترمقها البالغ بابن خلدون، من جهة مفهومه السالب للسود وأرضهم، بما في ذلك تلك الصورة النمطية عن السود المنغمسين في الشهوات والملذات الحسيّة، والمشتغلين بالسحر والخرافات، والمتسمين بالخفّة والطرب، والبُعد عن الروحانيات والعقلانية، والحزم والتبصّر في عواقب الأمور الخ. وأخذ جامع على ترمقها بصفة خاصة، تجريد السودانين عن إسلامهم، ونعته بالإسلام الأرواحي والوثني، وغير الأرثوذكسي، وما إلى ذلك، بزعمه.

- ولخص عبد الله علي إبراهيم الورقة التي قدمها الدكتور قيصر موسى الزين بعنوان:

المنهجية والإيديولوجيا: قراءة نقدية في كتاب الإسلام في السودان، بأنها تُجسّد - وفقاً لوجهة نظر كاتبها - الانشغال الإيديولوجي الدائب للأكاديميا الغربية بالسودان، وتساؤلها بإلحاح حول أصول أهلها وثقافتهم، وتحوُّله إلى الاسلام عن المسيحية، مما جعل موضوعي زوال المسيحية عن شمال السودان، وأصول سنار، في قطب دائرة البحث عندها.

- وقال إن الدكتور قيصر يعتقد أن ترمنقهام إنما أراد من كتابه أساساً دراسة: «كيف زالت المسيحية عن السودان، وكيف انتشر الإسلام، وحلّ محلها ..» وأنه يرى أنّ ترمنقهام، شديد التركيز على عامل السيف في نشر الإسلام، مما ترتب عليه أمران، أولاً: تسجيل إدانة تاريخية على العرب المسلمين، لفرض شرعهما بالقوة لإزالة المسيحية، وثانياً: الإيحاء بأنّ النبوة قد استبدلوا تحضُّرهم القديم، بجلافة البُداة الغُزاة، لكي يخلُص من ذلك إلى أنّ ترمنقهام لم يكتب تاريخاً، وإنما فضفض عن مسألة أخلاقية، مقرونة بشيء من الحسرة وخيبة الأمل.^١

- وختم الدكتور عبد الله علي إبراهيم استعراضه التحليلي للأوراق المُقدّمة، بورقة الدكتور عبد الله سالم بكو، فلاحظ أنّ الدكتور بكو قد قرأ كتاب ترمنقهام على ضوء مقولات نقد الاستشراق، وهو الذي وقف الدكتور قيصر موسى الزين على عتبته كما قال. ودلّل على ذلك بأنّ الدكتور بكو قد أعرب عن اعتقاده بأنّ كتاب ترمنقهام يقع في باب «الدارس» و«المدرس»، عبر جدلية «الأنا» و «الآخر» بكل ما تقتضيه من الوقوع في إसार التنميط، وصوغ الأحكام العمومية، والآراء المُسبقة، والقوالب الجاهزة، وذلك من قبيل زعم ترمنقهام - على سبيل المثال - «أنّ السوداني المسلم يستطيع أن يحفظ ويكرّر، ولكنه لا يستطيع أن يُبدع» الخ.

- ومهما يكن من أمر، فلعلنا لا نُغالي إذا ما وصفنا هذه الندوة التي عقدها مركز التونير المعرفي لمناقشة كتاب «الإسلام في السودان» لاسبنسر ترمنقهام، والكتاب الذي تمخضت عنه، وصدر في عام 2011م، بعنوان: «إغواء الصفوة: قراءات نقدية في كتاب سبنسر ترمنقهام: الإسلام في السودان»، بأنه واحد من أكبر الإنجازات والمُقاربات الفكرية النوعية، والأكثر عمقاً وجديّة، التي اضطلعت بها الإنتلجنسيا السودانية، ربما منذ الاستقلال.

- إنه بكل تأكيد عملٌ يُنمّ - على أقل تقدير - بالإضافة إلى محض الحميّة الوطنية، عن جرأة محمودة، وملح انعتاق مُصمّم أو disenchantment كما يعبر الإنجليز، من إसार حالة الإنبهار المجاني وشبه المزمّن، من سحر كلما يخطه الرجل الأبيض، حتى فيما يخصنا ويتعلق بنا نحن أنفسنا، فكأنه الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

- على أننا لاحظنا أن جُلَّ النَّقد الموجَّه لاسبنسر ترمقها وكتابه «الإسلام في السودان»، في كتاب «إغواء الصفة»، قد جاء من قبيل ذلك النمط من النقد الثقافي والمقاصدي والمفاهيمي العام، أي المعنِّي بكُبريات القضايا دون التفاصيل الدقيقة ذات الصلة بالمعلومات ذاتها، وهي لعمري اللبنة الأساسية التي يُبنى بها أي مصنف ذو بال في التاريخ، وإلا إذا انتفت عنه هذه الصفة، فسوف يغدو بكل تأكيد مرجعاً مُضللاً، وغير جدير بالثقة لأن يؤخذ منه كمرجع تاريخي يُعتمد به. قال شوقي رحمه الله: وإذا المعلمُ ساءَ لحظَ بصيرةٍ **** جاءتْ على يدِه البصائرُ حُولا
- ربما يكون الشيطان حاضراً أو كامناً كما يحلو للبعض أن يردد أحياناً، في تفاصيل الكثير من الأشياء، ما خلا في تقديرنا البحث العلمي والنقد العلمي أيضاً. ذلك بأن إهمال الدقة والتفاصيل في مثل هذه المواطن، هو مدعاة للكثير من ضروب الدس، والتدليس، والهلوجة، و«الخَم»، والخطاب الشعبوي والتنميطي السائب، والكلام المُلقى على عواهنه.
- إننا - بطبيعة الحال - لا نُنكر أهمية ذلك الضرب من النقد المقاصدي والمفاهيمي والثقافي، بوصفه مقارنة أساسية ومشروعة لأي منتج فكري.
- إذ أن ذلك هو من أقصى مقتضيات علم اجتماع المعرفة، المعني بطرح جملة من التساؤلات الجوهرية الكبرى من قبيل: من؟ قال ماذا، لمن، ومتى، ولماذا؟، وهل ممَّ جراً.
- ولكن في خضم الانشغالات الإيديولوجية والفكرية الكبرى، ربما أغفل بعض الناس، أو تناسوا التوقف ملياً وبفحص وتدقيق شديدين، عند السؤال الجوهرية للغاية: «ماذا؟»، أي المادة نفسها، من حيث صحتها وصدقها. على أننا نُقرُّ بأن الكاتب الذي تحكمه وتسيره إيديولوجيا معينة، وذا الغرض على النحو الذي انتقد به المساهمون بأوراق في هذا الكتاب اسبنسر ترمقها وكتابه عن الإسلام في السودان، يميل في الغالب إلى أن يكون قليل الحرص والمبالاة في إيراد المعلومات الصحيحة والدقيقة عن «الآخر». فلعله شيء قريب من قول بعضنا في بعض المواطن في المقابل مثلاً: «عجمي فالعجب به !!».
- ولربما بدا هذا الصنيع في مجمله كما لو كان سجالاً إيديولوجيا في مقابل إيديولوجيا مضادة، لخصها عبد الله علي إبراهيم نفسه، ونمَّ عنها من مكونات لا وعيه، عندما وصف كتاب ترمقها بأنه «مدرسة المُبشِّر»، في إشارة منه لبيت أغنية: «في الفؤاد ترعاه العناية «للشاعر: «يوسف مصطفى التَّني» التي يحفظها كل سوداني، وهو قوله:
- ما بخُشْ مدرسة المَبشِّر
- عندي معهد وطني العزيز
- على أنه بعد أن تصفحنا كتاب «الإسلام في السودان» لاسبنسر ترمقها، هذا الكتاب العُمدة

في بابه أو Seminalwork كما وصفه عبد الله علي إبراهيم، والذي ظل لعقود عديدة، هو وكتاب السير هارولد مكمايكل «تاريخ العرب في السودان»، الذي صدر في عام 1922م، أهم مصدرين لمعرفة الغربيين عموماً عن العروبة والإسلام في السودان، بل امتد تأثيرهما الطافي لكي يشمل طوائف كبيرة من الأكاديميين والمثقفين العرب والمسلمين، بل أعداداً مُعتَبَرة من المتعلمين السودانيين أنفسهم، ألفيناه في الواقع، يغصُّ بأخطاء موضوعية جسيمة، شابت عدداً كبيراً من المعلومات التي أوردتها ترمنقها في كتابه المذكور.

- وما نحن نورد فيما يلي، قائمة غير حصرية لجملته من الأخطاء الموضوعية التي آنسناها في كتاب ترمنقها: «الإسلام في السودان»، وقد اعتمدنا في ذلك على الترجمة العربية لهذا السفر، التي أنجزها الأستاذ فؤاد عكود. (ج. سبنسر ترمينجهام، الإسلام في السودان، ترجمة فؤاد محمد عكود، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2001م).

- في صفحة 87 من الكتاب، قال المؤلف تحت الفصل الذي عنوانه: السودان تحت الحكم الإسلامي، والعنوان الجانبي: توسع القبائل العربية وتعريب السودان: «يبدو أن الخوالة استقرت حول كبوشية» أ. هـ. وهذه المعلومة لم يقل بها أحد البتة ممن كتبوا عن القبائل السودانية وتوزيعها الجغرافي، ومناطقها الأصلية، وتواريخ تحركاتها داخل الفضاء السوداني من قبل. وهي تبدو معلومة غير صحيحة وغير دقيقة. فالخوالة موطنهم هو غرب الجزيرة، وعلى ضفتي النيل الأبيض في قطاعه الشمالي، مُساكنين دوماً للكواهلة ومتداخلين معهم.

- وفي ذات الصفحة 87، يذكر ترمنقها في معرض حديثه عن قبائل البقارة، سلطاناً سماه هو «حسن» بدارفور، والواقع أنه لا ذكر لسلطان اسمه حسن في دارفور مطلقاً، في جميع مصادر تاريخها.

- في صفحة 104، تحت العنوان الجانبي: انتشار الإسلام في السودان، يقول المؤلف إن غلام الله بن عايد «كان والده قد جاء من اليمن»، وهذا خطأ، وإمّا الصواب هو أن غلام الله نفسه هو الذي جاء من اليمن إلى دُنُقلة في حوالي منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، اللهم إلا أن يكون هناك قور ما في الترجمة، كأن يكون الأصل الإنجليزي قد نص على ما معناه أن أصل والد غلام الله من اليمن مثلاً، وإن كنا نستبعد ذلك.

- وفي صفحة 105 يقول ترمنقها: «وفي مملكة الفونج ذاتها كان أول مُصلح هو محمد العريكي الذي قدم من مصر» أ. هـ. وهنا مسألتان: الأولى أن اسم ذلك الشيخ هو محمود وليس محمد، والثانية وهي مسألة خلافية بين الباحثين، عما إذا كان محمود العريكي سودانياً ذهب إلى مصر ودرس بها ثم رجع إلى بلاده، أم أن أصله هو نفسه من مصر. وظاهر عبارة ترمنقها توحى ضمناً بأنه ينحاز إلى هذا الرأي الأخير. والراجح

أن محمود العري قد كان سودانياً من قبيلة العركيين، وإلا لكان ود ضيف الله قد نص على مصريته صراحةً، كما فعل مع الشيخين محمد القناوي، ومحمد بن علي بن قرم الكيماني الشافعي على سبيل المثال.

- والحق هو أن ود ضيف الله قد قال إن مولد محمود العري بالأبيض، وفهم منها محقق كتاب الطبقات البروفيسور يوسف فضل، أن المقصود به هو النيل الأبيض، وهو الراجح إن شاء الله تعالى.

- وفي الهامش رقم (2) من ذات الصفحة، زعم المؤلف أن الشيخ محمد ود عدلان الشايقي الحوشابي قد ذهب إلى بلاد البرنو والهوسا، وليس ذلك بالمذكور في ترجمته بكتاب طبقات ود ضيف الله، كما لم يوضح ترمقهام من أين حصل على هذه المعلومة الشاذة، التي هي أقرب إلى أن تكون اختلاقاً محضاً.

- في صفحة 134 من الكتاب، يذكر ترمقهام أن الشيخ محمد بن المختار المتوفى في عام 1882م، هو الذي أدخل الطريقة التجانية في السودان، وهذا زعمٌ باطل تهوك فيه أيضاً كثير من المؤلفين والباحثين السودانيين، غالباً بتأثير من هذه المعلومة التي أوردها ترمقهام في كتابه هذا. ذلك بأن هنالك شخصاً سودانياً أسمه الشيخ «الماحي الدارفوري»، تخبرنا المصادر أنه قد سلك هذه الطريقة كفاحاً من مؤسسها الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد التجاني (1737 - 1815 هـ)، وإن كنا لا ندري حتى الآن إن كان هذا الشيخ الماحي قد سلك هذه الطريقة لغيره من السودانيين أم لا. على أن من المقطوع به أن أول من أدخل الطريقة التجانية بطريقة منتظمة وموثقة إلى السودان هو الشيخ مولود فال يعقوبي الشنقيطي (ت. 1851م)، إذ أنه سلكها الشيخ محمد ود دويلب (1800 - 1880م) الركابي بخُرسى بكردفان في سنة 1838م، ومنه انتشرت هذه الطريقة خصوصاً في غرب السودان. على أنه من الجائز أن يقال إن الشريف محمد المختار بن عبد الرحمن التجاني هو أول من نشر الطريقة التجانية في شمال السودان تحديداً، حيث ظل يعيش هناك في آخر عمره، إلى أن توفاه الله تعالى ودفن بجزيرة أم حراحر بالقرب من شندي.

- أخطأ المؤلف في صفحة 140 من الكتاب، في تحديد سنة وفاة الشيخ قريب الله بن أبي صالح بن الشيخ الطيب البشير فجعلها سنة 1930م، بينما هي سنة 1936م، وهو لعمرى تاريخ قريب جداً من تاريخ وصول ترمقهام نفسه إلى السودان في ثلاثينيات القرن العشرين، فمن المدهش حقاً ألا يضبطه، خصوصاً وأن الشيخ قريب الله كان آنئذ من أشهر الشخصيات الدينية على الأقل بأمر درمان، إن لم يكن في السودان بأسره. - في صفحة 155، كتب المؤلف: «بدأت الأساطير تنمو عن المهدية قبل وفاته بفترة طويلة، وقد شجع المهدي القاضي إسماعيل بن عبد القادر الكردفاني، ابن مؤسس الطريقة الإسماعيلية، وأحد أتباعه المتحمسين، بأن يؤرخ أحداث عهده.. الخ»، والواقع

- هو أن إسماعيل بن عبد القادر الكردفاني، هو حفيد الشيخ إسماعيل الولي مؤسس الطريقة الإسماعيلية ابن بنته، وليس ابنه كما قال ترمنقها. وفي صفحة 191، تحت العنوان الجانبي: «دخول الطرق السودان» يقول ترمنقها في معرض حديثه عن دخول الطريقة الشاذلية للبلا: «الشيخ حمد أبو دنانة الذي استقر بضاحية بربر في عام 849 هـ / 1445م». والشاهد هو ذكره مدينة بربر، وهو ذكر غير مناسب في هذا السياق في تقديرنا، إلا إذا كان يقصد أن منطقة «سقاوي» التي أقام بها الشيخ أبو دنانة المذكور، تتبع إلى «مديرية بربر» وفقاً للتقسيم الإداري للسودان تحت ظل الحكم التركي المصري. غير أن سائر المصادر التي تشير إلى هذه الواقعة، إنما تنص عادة على أن سقاوي المذكورة تقع غرب بلدة «المحمية»، وكذلك من الممكن وصفها بأنها تقع إلى الشمال من مدينة شندي مثلاً، أما بربر فإنها بعيدة عنها.
- وفي ذات الصفحة 191، يخلط المؤلف بين العركيين واليعقوباب حينما يقول في معرض حديثه عن خلفاء الشيخ تاج الدين البهاري بالسودان: «وعبد الله دفع الله العركي مؤسس العركيين (الذين تحولوا فيما بعد إلى السمانية حوالي 1800م). ذلك بأن الذين كانوا قادريّة ثم تحولوا إلى السمانية بتأثير من الشيخ محمد التوم بانقا (ت. 1852م)، هم اليعقوباب وليس العركيين الذين بقوا على قادريتهم جميعاً تقريباً.
- وفي صفحة 192، زعم المؤلف أن الشيخ التلمساني المغربي قد قدم على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب في عهد بادى بن رباط (1651 - 1684م) الملقب ببادى أبو دقن. وهذا الاستنتاج من قبل المؤلف ليس عليه من دليل، بل الراجح هو أن الشيخ التلمساني قد قدم على الشيخ سوار الذهب في زمان أبكر من ذلك بكثير. ذلك بأن وديف الله قد ذكر هذه الواقعة في مقدمة الطبقات في سياق الأحداث التي وقعت في أول النصف الثاني من القرن العاشر الهجري الموافق للسّادس عشر الميلادي، أي في عهد السلطان عمارة أبو سكيكين كما قال.
- على أنه يجوز أن يكون الخاتم أو الوثيقة المختومة التي حررها السلطان بادى بن رباط لاحقاً للشيخ سوار الذهب وذريته قد صدرت في آخر عمر الشيخ محمد ولد عيسى، خصوصاً إذا ما علمنا أن الشيخ محمد سوار الذهب كان معاصراً للشيخ إدريس بن محمد الأرباب (1507 - 1651م)، وصديقاً له.
- وقال ترمنقها في ذات الصفحة 192: «وبدأت في الشمال الطريقة المجذوبية (متفرعة عن الشاذلية) في أوائل القرن الثامن عشر بمحمد بن المجذوب (1693 - 1776م).. وها هنا خطأ في اسم هذا الشيخ الذي هو «حمد بن محمد المجذوب»، وليس محمد بن المجذوب.
- وفي صفحة 194، زعم المؤلف أن الشيخ أحمد الطيب البشير قد أدخل الطريقة السّمانية إلى السودان في عام 1800م، وهذا خطأ، وإنما الصحيح الثابت والمنصوص

عليه في مصادر هذه الطريقة، أن الشيخ أحمد الطيب البشير قد رجع من المدينة المنورة حاملاً معه الطريقة السمانية والإذن بتسليكه في عام 1766م، وله من العمر آنئذ 24 عاماً. أي قبل تقدير ترمقها الجرافي الذي لا ندري من أي مصدر استقاه بأربعة عشر عاماً. (انظر مثلاً كتاب: أزهير الرياض في مناقب الشيخ أحمد الطيب البشير من تأليف الشيخ عبد المحمود نور الدائم).

- وفي ذات الصفحة 194، يأتي ترمقها باقعة عظيمة أخرى، لا ندري أين وجدها، ولا من أي مصدر أخذها، ألا وهي زعمه أن الشيخ إبراهيم الرشيد الدويحي (ت. 1874م)، «هو من أسرة مؤسس الطريقة الرشيدية الجزائرية».

- وكان المؤلف قد أخطأ قبل ذلك في الصفحة نفسها خطأ طفيفاً، ولكنه يبقى خطأً على كل حال، في تعيين سنة وفاة السيد أحمد بن إدريس الحسني الفاسي، إذ أنه جعلها في 1836م، بينما هي 1837م في الحقيقة.

- وفي صفحة 195، يكرر ترمقها خطأ السابق الذي نبهنا إليه آنفاً، بتقرير أن أول من نشر الطريقة التجانية في السودان هو الشيخ محمد بن المختار المتوفي في عام 1882م، وأبنا من جانبنا أن الشيخ مولود فال يعقوبي الشنقيطي قد نشر هذه الطريقة قبل محمد المختار ببضعة عقود، إذ أنه سلكها الشيخ محمد ود دوليب في عام 1838م كما مضى ذكره.

ولكن ترمقها لا يأت على ذكر مولود فال ولا على ذكر ود دوليب، وينسب نشر التجانية في كردفان ودارفور إلى الشيخ عمر قنبو الهوساوي، مع أن هذا الأخير قد توفي في عام 1918م فقط، في حين أن ود دوليب قد توفي قبله بقرابة الأربعين عاماً.

- وفي صفحة 210 من الكتاب، يقول ترمقها في معرض حديثه عن دخول الطريقة القادرية إلى السودان على يد الشيخ تاج الدين البهاري: «وقد جاء الاقتراح بزيارة السودان من داوود بن عبد الجليل محمد، تاجر الرقيق من أربجي الذي التقى به في موسم الحج «أ. هـ والشاهد هو قوله: «تاجر الرقيق». وهو لا يقول لنا كيف عرف أن داوود بن عبد الجليل كان تاجراً للرقيق، وليس تاجراً للعاج أو ريش النعام أو الصمغ أو السنمكة مثلاً، ولا يدلنا على المصدر الذي عثر فيه على هذه المعلومة. كما لا يخبرنا في المقابل كيف عرف أن جد داوود بن عبد الجليل كان اسمه محمداً، لأنه ليس مذكوراً في الطبقات، وهو المصدر الوحيد لهذه الرواية. ولكن يبدو أن القصد هو أن يتلح القارئ هذا الطعم الممثل في ذكر «محمّد» هذا الجد المختلق لداوود ود عبد اللطيف، حتى ينهر بتبحر هذا الكاتب وحسن تقصيه الدقيق للأخبار، فتتغرز فيه في المقابل صنارة «تاجر الرقيق» الأخرى وهي بيت القصيد بالطبع. محض تدليس ولهوجة ليس إلا».

- وفي صفحة 212، يقول ترمقها في معرض حديثه عن أثر الطريقتين السمانية والختمية في إعادة تشكيل خريطة الولاء والانتماء الصوفي في السودان: «... وهكذا أصبح خلفاء الشيخ إدريس (يعني الشيخ إدريس بن محمد الأرباب) ميريغية، كما تحول يعقوباب

والعركيون وأولاد الترابي إلى السمانية.. «أ. هـ. وهذا غير صحيح أو دقيق بصورة مطلقة. إذ صحيح أن ذرية الشيخ إدريس بن محمد الأرباب وعموم الخوجلاب أيضاً قد تحولوا إلى الختمية، وكذلك تحول يعقوباب إلى السمانية، ولكن العركيين قد ظلوا قادرية لهم مراكزهم المأهولة بأبي حراز وطيبة الشيخ عبد الباقي وغيرها إلى يوم الناس هذا، ولم يتحولوا لا إلى السمانية ولا إلى الختمية. وأما أحفاد الشيخ حمد النحلان ود الترابي، فلم يتحولوا إلى السمانية كما زعم الكاتب، وإنما إلى الختمية. وبالجمله فإن عبارته يشوبها تخليط واضطراب كبير.

- في صفحة 214، تحت العنوان الجانبي: الشاذلية، أخطأ المؤلف في تعيين مسقط رأس الشيخ أبي الحسن الشاذلي لأنه قال: «وُلِدَ مؤسسها أبو الحسن علي بن عبد الله الشاذلي في عام 1196م، في الشاذلية بالقرب من زوان بتونس» وهذا غير صحيح.
- وإنما الصحيح هو أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي قد وُلِدَ بَعَمارة بالمغرب الأقصى، وارتحل منها لاحقاً إلى بلدة «شاذلة» بتونس فُسب إليها.
- وفي صفحة 218، يقول المؤلف في معرض حديثه عن الإمام محمد أحمد المهدي: «محمد أحمد الدنقلاوي الذي التحق فيما بعد بالشيخ القرشي الزين خليفة نور الدائم في المسلمية» الخ، والشاهد هو قوله إن الشيخ القرشي هو خليفة نور الدائم، وهذا غير صحيح، وإنما الصحيح هو أن الشيخ القرشي ود الزين قد كان من كبار تلاميذ وخلفاء الشيخ أحمد الطيب البشير (1742 - 1823م) نفسه الذي هو والد الشيخ نور الدائم.
- وفي صفحة 220 من الكتاب، يُخطئ ترمنقهام في عام ميلاد السيد أحمد إدريس الفاسي، فيكتبه 1760م، بينما أنه قد وُلِدَ في الواقع في عام 1750م، كما هو مذكور في سائر المصادر ذات الصلة.
- ويعود ترمنقهام في صفحة 222 من الكتاب، لكي يكرر ادعاءه الخطير السابق من دون إبراز أي دليل قائلًا: «وادَّعى إبراهيم الرشيد الدويحي انتماءه لأسرة سيدي أحمد الرشيد (توفي عام 1524م)، مؤسس الرشيدية في الجزائر». ولكنه لا يُوقفنا كعاداته على المصدر الذي عثر فيه على هذه المعلومة، ولا يوضح لنا أين قال الشيخ إبراهيم الرشيد الدويحي هذا الكلام.
- وقال المؤلف في صفحة 227 من الكتاب إن الشريف محمد المختار بن عبد الرحمن الشنقيطي (1820 - 1882م)، قد وُلِدَ في تاشت بالجزائر كما قال، وهذا غير صحيح، وإنما الصحيح هو أن الشيخ المذكور قد وُلِدَ في بلدة «تَشِيت» بكسر التاء والشين معاً، وهي بلدة تقع في موريتانيا، ولا علاقة لها بالجزائر مطلقاً كما زعم.
- وأخيراً في صفحة 228 من هذا الكتاب، يزعم المؤلف أن الشيخ محمد البدوي المعروف بشيخ الإسلام (1841 - 1911م)، المدفون بضريحه بحي العباسية بأمر درمان، أحد من

دخلوا في الطريقة التجانية على يد الشيخ محمد المختار بن عبد الرحمن الشنقيطي، وذلك حين يقول: «ودخل العديد من الأتباع في الطريقة في كل أنحاء السودان، بمن فيهم حسين سلطان دارفور، والشيخ محمد البدوي الذي أصبح شيخ الإسلام في الأيام الأولى للحكومة الحالية، وقبره في أم درمان مشهور الخ». والواقع هو أن الشيخ محمد البدوي قد انتظم في سلك الطريقة التجانية على يد الشيخ محمد ود الزاكي العُراقبي بكردفان، وكان هذا الأخير قد أخذها عن الشيخ محمد ود دوليب الذي مرَّ ذكره من قبل.

- وبعد، فهذه طائفة غير استقصائية للأخطاء الموضوعية التي وقع فيها سبنسر ترمقها في سفره الشهير هذا، الذي ظل واحداً من المصادر الأولية عن الإسلام والثقافة والتعليم والتصوف الإسلامي في السودان، عليها تجئ مكملة للنقد المنهجي السديد الذي اضطلعت به تلك الثلة من العلماء والباحثين الأفاضل في أوراقهم العلمية، التي جُمعت بين دفتي كتاب: إغواء الصفة.

- على أن يتوجب علينا أن نقول أيضاً في الختام، أن ليس كل ما ورد في هذا الكتاب من معلومات ورؤى وتحليلات، هي من قبيل الباطل الحبريت الذي لا غناء فيه. فقد جاء هذا الكتاب مهما كان رأينا فيه، غزير المعلومات، وحسن التبويب، وجيد التوثيق، وهو يشكّل في طريقة إخراجها خاصةً، قالباً نموذجياً يُحتذى، خصوصاً من حيث الشكل، في إعداد البحوث والأطروحات العلمية في هذا الباب.

- ولا يخلو الكتاب أيضاً من حيث المحتوى، من جملة من الأفكار النيرة والموحية حقاً، فضلاً عن الكثير من المعلومات المفيدة. وقد رأينا كيف أن ترمقها يعتقد أن الديانة والعقيدة المسيحية قد كانت سطحية في بلاد النوبة، ولم تتغلغل حقيقة إلى شغاف قلوب سكانها، مما سهل على الإسلام عملية محوها بالكلية وإحلال نفسه في مكانها في غضون قرون قليلة. وكذلك مقارنته النافذة لشريحة الأفندية في السودان، ومحاولة استبطان حقيقة موقفها المعرفي والنفسي من تراث مجتمعتها السوداني الذي خرجت منه. وأما من حيث حاق المعلومات، فقد استوقفت كاتب هذه السطور على نحو خاص - على سبيل المثال - إشارة ترمقها إلى وجود قرية باسم «شاذلي» بالقرب من سنار منذ القرن الثامن عشر الميلادي على الأقل، مما يشي بوصول تأثير الطريقة الشاذلية إلى تلك المنطقة منذ سبعينات القرن الثامن عشر على أقل تقدير، وهو الأمر الذي يتطلب المزيد من البحث والتنقيب في هذه المسألة من أجل استجلائها على نحو مُرضٍ. هذا، والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.